خالد القشطيني

الجذور الايديولوجية للعنصرية الصهيونية

الجو السياسي في القرن التاسع عشر :

هناك الان سيل من الوثائق تثبت الممارسات القائمة على العنصرية في اسرائيل . والواقع ان معادي الصهيونية قد اصبحوا اليوم قادرين على فضح ممارساتها . والشيء الذي بقي مهملا هو وضع هذه الممارسات في اطارها الايديولوجي ، وهو اطار لا يحاول الصهاينه التنصل منه . وقد لفتت المحكمه العليا الاسرائيلية النظر الى اهمية التأثيرات في قضيه اولاد شاليت (١٩٧٠) واكدت على قيمه العنصر العرقي والدم المشترك . وقد كشف القاضي كستر عن حقيقة مهمة بقوله « ان من الصعب ان نتكلم في هذه الايام عن العرق ولكن الصعوبة هي بصورة رئيسية صعوبة لغوية من حيث ان النازيين اعطوا كلمة « العرق » رائحة كريهة . بيد ان علينا أن لا نسمح للنازيين ان يديروا عقولنا بعيدا عن القيمة الحقيقية لهذه الميزة » . ان هذه الرائحة الكريهة بالذات هي التي تجعل الصهاينة الان يتظاهرون بجرح كرامتهم . فقبل عدة اجيال كانوا يشعرون بكرامة مجروحة حقا وحقيقة لو ان احدا نفى عنهم صفة العنصرية .

انها مسألة عالمين مختلفين تماما . في العالم القديم ، عالم ما قبل الثورة البلشفية ، كان من العار الشنيع للانسان أن يسير في صحبة الماركسيين والاشتراكيين . كان المجتمع يقضي بان على الرجل المحترم ان يكون وطنيا قوميا وبنفس الوقت على الوطني والقومي ان يؤمن بتفوق قومه ونقاء عنصره . وربما شعرنا بصدمة عندما نسمع بان شخصيات مثل برنارد شو وتوماس مان وشارلس داروين وهربرت سبنسر وتوماس كارلايل وكارل كاوتسكي وكارل يونغ واوتو فايننغر ، ايدوا جميعا العنصرية بشكل او باخر .

وقد انقلبت الاية اليوم . لم يعد هناك سياسي في ايامنا هذه يقوى على تحمل تهمة العنصرية . وقد ترك الاتجاهان معا اثارهما على القومية . وبفضر ما الفنا اليوم تلون الحركات القومية والتحررية في العالم الثالث بصبغة الماركسية والاشتراكية ، كان المألوف ان نجد ان القومية في اوروبا تستعمل لفه العنصريين .

ولما كانت القومية العربية قد بلغت سن نضجها في القرن العشرين فقد رأيناها تتلون بآثار الاشتراكية بينما تلونت الصهيونية التي بلغت سن نضجها في القرن التاسع عشر بالفكر العنصري .

عندما ظهر عمالقة الحركة الصهيونية على المسرح الاوروبي ونشرت المؤلفات الكلاسيكية الصهيونيه ، كان المجتمع الانساني قد وصل نقطة « الانطلاق » في التقدم ، النقطة التي طالما انتظرها الانسان منذ وضع لبنتها الاولى في هذه البلاد ، بلاد الرافدين ، ونقلها لا الى الشرق الاوسط وانما الى اوروبا ايضا . وسيجة ذلك ظهرت « الهوة » الشهيرة بين انجازات الرجل الابيض والعجز المخيف لبقية البشرية ، وكان لا بد لذلك من ان يغذي وهم تفوق الجنس الابيض .

ولئن كان هناك ايضا « هوات » تفصل بين ما سمي بالاجناس البيضاء نفسها ، اذ كانت الشعوب الاوروبيه قد دخلت في صراع مرير فيما بينها للفوز بمكاسب اقليمية واستعماريه واقتصاديه .

كان هناك سباق في الاستيلاء على المستعمرات وسباق في التسلح وكان العامل الكفيل بكسب اي من تلك السباقات ـ كما في اي سباقات رياضية ـ هو الايمان بالقدرة على الفوز . وهكذا ظهرت الحاجة الى سند ايديولوجي تقوم عليه فلسفة عنصرية .

العنصرية الاوروبية :

العنصرية ليست شيئا جديدا . الجديد فيها هو الثوب العلمي الذي اعطى لها منذ القرن التاسع عشر ، والشخصية البارزة في هذا الصدد هي شخصية شارل داروين . لقد سمع العلماء كيف زالت عن وجه البسيطة انواع عديدة من الحيوان بسبب عدم صلاحها للبقاء . وطبق ذلك على البشر واستنتج منه ان زوال اقوام من التاريخ كالبابليين والرومان وبقاء قوم كاليهود يعني ان اليهود اصلح للبقاء من السالفين . على يسار داروين وقف ماركس بفلسفته عن تطور المجتمع والصراع الطبقي ، مما اشتقه من نظرية داروين ،وعلى يمينه وقف فردريك نيتشه بآرائه عن الرجل المتفوق والصراع القومي، وهي آراء استمدها من فكرة الصراع على البقاء وبقاء الاصلح .

وكما سنرى بعد قليل ، فان الصهاينة لم يترددوا لحظة واحدة في تحديد موقفهم . اذ انهم بعد رفضهم لماركس تمسكوا بفكرة الصراع القومي ضد فكرة النزاع الطبقي .

وكان يوهان غوتليب فخته قد رسم الخطوط الرئيسية للعنصرية الالمانية قبل عدة سنوات من نشر « اصل الانواع » لداروين عام ١٨٥٩. وبموجب هذه الافكار فان على الامم ان تبقى منفصلة عن بعضها البعض،

فبكريس نفسك لخدمه قومك نخدم الانسانية باحسن صوره ،وينبغي ان تحكم الامة بواسطة النخبه . ولا يمكن لليهود ان يمتنعوا بمصالح مشتركه مع الاخرين ، والمخرج الوحيد هو تهجيرهم الى فلسطين . وما عدا ذلك فالوسيله الوحيدة لتحويلهم الىمواطنين طيبين هي في قطع رؤوسهم وتركيب رؤوس جديده لهم خالية من اي فكرة يهودية .

كانت افكار فخته تأمليه واعتباطية ، ولكن العنصريه ، مع تقدم العلوم ، اكتسبت شكلا واضحا ومحددا . فبالنسبه الى فخته مثلا ، ان الحدود الاقليميه للامه خاضعة للحدود اللغويه . وتم تصحيح ذلك فيما بعد بظهور علم الاجناس الذي ترك اثرا كبيرا على موضوعنا . ثم تعد الامة مجرد مجموعة تتكلم لغة متشابهة وانما مجموعة تتميز بدم مشترك وسلالة واحدة وتقاسيم جسمية واحدة . وبدأت فكرة داروين عن الانتقاء الطبيعي تلعب ادوارا خطيرة في هذه الميادين . ظهر مثلا علم الوراثه ، او علم « الصحه العرقية » كما سماه الدكتور انفريد بلوينز ،وادى الى انشاء جمعيات الصحة العرقية في اواسط اوربا . ومن الجدير باولئك الذين يستشهدون بكلمات عوندا مئير عن ارتفاع نسبة الولادة بين العرب وخطرها على يهوديه اسرائيل ان يتذكروا كلمات الكاتب الانجليزي العنصري و . ر . غريك في تلك التحفة عن « السلتيين المنحلين » (الارلنديين والويلزيين .. الخ) الذين كانوا يتزايدون بسرعة اكثر من تزايد السكسون العظماء وبالتالي اعطوا الفرصه للعرق الرديء بالغلبه نتيجة صفاته السيئة (٢) .

لقد كان العلم الحديث في مراحله الاولى وكانت معظم الاكتشافات تقوم على ملاحظات شخصية وليس على المعلومات الاحصائية المحسوبه . وحتى شخصيه مثل هربرت سبنسر اعتقد بأن القدم رهن بنشاط الرجل الابيض فقط . وبينما ندرك الان ان خيروسيله لتحسين الانواع هي التهجين بينها ، اشار سبنسر بالنصح ضد خلط الاصناف المختلفه.وقد استهوى علم الاجناس ، الحديث الولادة، موسى هس مؤلف « روما والقدس » واحد رواد الصهيونيةالبارزين. وبعد مزاوجه هذا العلم باليهوديه ، توصل هس الى نظرياته العرقيه الصهيونيه ، فرأى أن الاختلافات بين الشعوب فطرية وموروثه وليست مكتسبه ، أبدية وليست زائلة .

وفي الحقل السياسي الاجتماعي ، لعبت مدرسة المؤرخين البروسيين بزعامة هنريخ فون تريتشكه دورا حاسما في دولبة الفكر الرجعي في اوروبا وتركت اثرا عميقا على الصهيونية من جانب وعلى الاشتراكية الوطنية الالمانية من جانب آخر . وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر، طبعت موسوعة « كولتورغشختة» (تاريخ الثقافة) للكاتب الالماني فان هلفالد وضمت ابحاثا لعشرين مفكرا عنصريا شهيرا ، بمن فيهم بكنز وكارل فوغت .

ان الاراء التي وردت في هذه الموسوعة قد ركزت على الصيغ المعهودة : العرق هو الاساس ، العرق الابيض هو المسيطر ، نقاءالعرق ضروري ، النساء والزنوج مخلوقات منحطة ، المساواة سخف ،الهوة بين الاجناس المتفوقة والاجناس الملونة ستتسع ، اليهود غرباء وسيبقون كذلك .

واكثر من ذلك شهرة كتاب « اسس القرن التاسع عشر » للكاتب هـ . أ س .تشامبرلين الذي جعل من العلم فلسفة عرقية ، وذلك قبل ان يشرع بالتهجم على اليهود والسود . وقد تميز بدحضه للامنطقية العنصريين الذين يقرون بنقاء الدم اليهودي ، وفي الوقت نفسه يتهمون اليهود بالرداءة او مركب النقص .

ويعتقد تشامبرلين ان اليهود نتاج ذرية هي خليط من البدو الساميين ومن الحثيين والسوريين والاموريين .

اما التطبيق العملي للفلسفة العنصرية فقد نادى به القومي الالماني فون تريتشكه الذي اصبحت كتاباته ، كتبا سياسية ارشادية للنازيين ، وقد حظيت بشعبية كبيرة قبل ذلك في الجامعاتالالمانية، حيث كان الصهاينة الشبان يتلقون تعليمهم .

ومن التأثيرات التي نادرا ما ذكرت ، تأثير مدرسه « الاصلاح الاستعماري » فقد دعا زعماء هذه المدرسة ، اثناء اشتداد البطالة والفقر ، الى تحويل السكان الفائضين الى المستعمرات . وقد استلهمت الصهيونية معظم شعاراتها العملية من تلك المدرسة ، بما في ذلك التغلب على التضخم السكاني بواسطه التهجير واستخدام المهاجرين في الزراعه والتأكيد على اهميه الاستيطان وتحقيق هذا المشروع الاستعماري تحت ظل دستور من سلطه استعماريه وبالتالي ممارسة الحكم الذاتي في حمايه من قبل السلطة . ومن الاهمية بمكان ملاحظة ان المصلح الاستعماري الرائد اللورد اشلي ، كان ايضا رائدا في الحركه الصهيونيه. ولم يكن للمصلحين الاستعماريين خيار آخر سوى ان يعلنوا ان شعوب المستعمرات الخاضعه والمنحطة هي في ادنى مرتبات الشعوب وان يعلنوا ايمانهم بقدرة الجنس الابيض ، والا فلن يكون بامكانهم اغتصاب الارض من ابناء البلد ولن يستطيعوا ان يجتذبوا مهاجرين بيضا ان هم ساووهم بأبناء البلد . وقد واجهت الوكاله اليهوديه هذه المشكله على الدوام . فهي لم تستطع رفع مستوى العرب الى مستوى اليهود بسبب مواردها المحدودة ، كما انها لم تستطع ان تجعل اليهود يعيشون بمستوى مدن كالمستوى الذي يعيش فيه العرب ، مخافة أن يرحل اليهود . وليس لديهم من خيار سوى ان يطبقوا قانون التمييز العنصري .

وعلى اية حال ، لم يكن ذلك هو الجو السياسي الكامل ، فقد كان هناك في الطرف المقابل كارل ماركس ووراءه جيش من المفكرين الاشتراكيين الذين كانوا قد اجتذبوا اتباعا كثيرين من بين المثقفين اليهود . ولكن الصهاينة لم يردعهم رادع . فتنديدهم بماركس من جهة ، وبالانصهار الحر من جهة ثانية لم يترك لهم مجالا سوى الانخراط في الجناح اليميني المتطرف للعنصريه القوميه .

العنصرية القومية :

ان الصهاينة ككل العنصريين ، عثروا على ضالتهم المنشودة في نيتشه الذي عبر في مناسبات عديدة عن اعجابه الشديد بالدين اليهودي ، كدين اكثر رجولة من الدين المسيحي الذي يتميز بانثوينه وعاطفيته ونفاقه .(٣) والواقع ان بالامكان اعتبار نيتشه من الصهاينة غير اليهود الذين تبنوا فكرة العودة الى فلسطين كوسيلة لانبعاث اليهود البولنديين (٤) . لقد كان هيرتزل واحد حاعام من تلاميذه الصهاينة ، ولكن منافسة هيرتزل لمعلمه الالماني ، تركزت على تمجيد القوة بشكل واضح . اما احاد حاعام فقد فتش في كتابات نيتشه عما يرضي ميله واستعداده للقبول بصوفية التفوق . ومن ناحية ثانية فقد استحوذت فلسفة نيتشه على عقول بعض المثقفينوالطلاب اليهود . وكما ثار نيتشه ضد المسيحية ، فقد سخر المثقفون اليهود من ضعف وميوعات المظاهر الدينية والمعنوية للدين اليهودي . وقد تعرض الى هؤلاء اليهود « احاد حاعام » في تعليقه الشهير على كتاب نيتشه « اعادة تقييم القيم ».

(Umwertung aller werte)

ويقول في بحثه هذا ان اليهودية احتضنت « النيتشوية » ولكن نيتشه لكونه المانيا رآى التفوق من خلال الصفات الارية ، وهكذا ولدت اسطورة « الوحش الابيض العادل » ، ذلك الوحش القوي الجميل من النوع الالماني الذي يجب ان يسود العالم . ولو كان نيتشه يهوديا لاختار رجله المتفوق من بين اليهود بعد ان يكون قد اضفى عليه المسحة الاخلاقية . وليس هناك من حاجة لخلق نيتشوية يهودية لانها موجودة منذ قرون . « فاتباع نيتشه يجب ان يعرفوا ان اليهودية لم توطد نفسها على الرحمة وحدها، ولم تجعل رجلها المتفوق خاضعا للرجال العاديين ، وذلك بالرغم من ان كل الهدف من وجوده هو ببساطة زيادة سعادة عامة الناس » .

ويذهب « احاد حاعام » الى ابعد من ذلك فيؤكد ان اليهودية سبقت النيتشوية بعدة قرون بفكرة الرجل اليهودي المتفوق ، الرجل التقي ، « الصديق » ،الذي هو غاية في حد ذاته ، والذي خلق العالم من اجله .

وكما ان نيتشه حاول ان يبرهن على ان ظهور الانسان المتفوق يؤدي الى ايجاد الشروط الضرورية لظهور الامة المتفوقة ، فان « احد حاعام » استنتج « ان هذه الفكرة تفتح آفاقا واسعة تظهر اليهودية من خلالها بثوب جديد وباحر » . ويقول : ان كثيرا من عيوب اليهودية التي يعيرنا بها الغرباء والتي يحاول علماؤنا ان يدحضوها او يبرروها تصبح صفات ايجابية ، اذا ما نظر اليها على ضوء تلك الفكرة .

ثم يمضي فيستشهد بنيتشه لتقوية حجته القائله : « انبامكان جميع افراد القبائل والعائلات ان يصلوا الى مستوى الرجل المتفوق». وهذا هو سبب عدم محاولة اليهود زياده عددهم « لان من خصائص النوع المتفوق ، ان لا يرضى بالقليل من قيمه عن طريق جعل الوجبات المنوطة به وحده ، واجبات تخص جميع الرجال » . ولكن المشكلة مع اليهود ، هي انهم لم يقدروا تماما نوعيه التفوق اليهودي (٥) ، فلكي ينبعث هذا العرق المتفوق لا بد له من مكان ثابت مستقر « حتى تتاح له الفرصة ثانية لتطوير عبقريته وابلاغ رسالته كاملة متفوقة (٦) .

ان الذين سنحت لهم الفرصة لاقامه علاقات مع اسرائيليين او شاهدوا تصرف اسرائيل قد صدموا بتجاوزات ذلك الشعور بالتفوق، وبثقتهم الزائدة بالنفس وبالتالي بعجرفتهم .

ان معظم الناس يعرفون سيزار لامبروسو لمساهماته العنصرية في علم الجريمة (٧) ، ولكن قليلا منهم يعرفون موقفه الصهيوني.

وقد أثرت افكاره بشكل خاص في ماكس نوردو ـ المساعد الايمن لهيرتزل الذي وصف لامبروسو بقوله : « انه اضخم ظاهرة عقليه في هذا القرن » . وحاول نوردو في كتاب « الانحلال » ان يثبت ان الانحلال « ليس الا انحرافا مرضيا عن النموذج الاصلي ». وفي هجوم عنيف له ضد الفن المعاصر في ذلك الوقت ، اوبالاحرى ضد الواقعية على وجه التحديد ، فان الفنانين المعاصرين بمجرمي لامبروسو ولصوصه وقتله . وقال : « ان التطور الذهني للمنحرفين يشتمل على نفس التشويهات التي تبدو في نموهم الجسدي . فعدم التناسق في الوجه والجمجمة له ما يقابله في مستوى الطاقات الذهنية . ففي حين ان بعض هذه الطاقات تتوقف تماما عن النمو يجد ان بعضها يشكو من افراط شديد في النمو» (٨). وهو يتحدث هنا عن تولستوي واميل زولا وابسن وبلزاك وهويتمان ومونيه ومانيه ودوميه ، الذين وصفهم بنعوت مثل : مهزوزون ، مرتجفون ، مهووسون ، فوضويون مثيرون للاشمئزاز ، بذيئون ، مهرجون .. الخ . وقد لفت الانظار الى التشويه اللاحق بشبكات ومقل عيون هؤلاء الفنانين بسبب اصابتهم بالاختلال والهيستيريا . وهذا نموذج على بطلان الادعاءات العلمية للفكر العنصري .

ويقول ايضا : « ان الواقعية كلمة فارغة تتبع من نظريات جمالية غامضة تتميز بالتشاؤم والميل القذي لا يقاوم للافكار الفاسقة ولاساليب التعبير الاكثر سوقية وقذارة »(٩) .

وفي مقطع آخر تنبأ فيه بالتعاليم النازية بشأن اخطار الفن المعاصر وبشأن الحاجه الى جعل المجانين والمرضى عاقرين ، هاجم نوردو الواقعيين والانطباعيين وقال : « يجب على المنحطين ان يسقطوا، فهم لا يتمكنون من تكييف انفسهم مع شروط الطبيعة والحضارة ،ولا يتمكنون من الحفاظ على انفسهم في الكفاح من اجل البقاء ضد الاصحاء . انهم يصبحون منهكي الاعصاب ، هستيريين ، يتسببون في ولادة المنحطين وبهذه الطريقة يقضون على جنسهم » (١٠) . لقد كانت تلك كلمات مخيفة اتخذها النازيون اساسا لسياستهم الوحشية في المجالات المشار اليها . ومهما يكن من امر، فقد كانت تلك الكلمات مجهولة تماما في اسرائيل . ففي الوقت الذي قامت فيه الدولة اليهودية كان انصار الفن المعاصر قد اصبح حقيقة لا مراء فيها . فمعظم الفنانين واساتذة الفن الذين هاجروا الى فلسطين كانوا ملتزمين بالاساليب الحديثة . ان تحريم الفن لا يكون الا في نظام كلي قائم على الغاء الفردية ، وهذا وضع لاينطبق على اسرائيل الان .

لقد كان الصهاينة يميلون دائما الى بريطانيا والولايات المتحده، وقد عبر ماكس نوردو عن هذه الميول الممالئة بمقابلة مواطني هذين البلدين بمواطني بلدان القارة الاوروبيه المنحطين ، وقال ان «العرق» « الانكلوسكسوني » هو بطبيعته موفور الصحة وسليم الفكر ». والواقع انه ليس هناك شيء اسمه « العرق » الانكلوسكسوني ،ولم يشرح لنا نوردو من اين احضر تشارلز ديكنز ولماذا وجدت الواقعية الهستيرية مكانا دائما لها في انكلترا . وهذا بالضبط مجرد تناقض آخر في التفكير العنصري .

ان « ف . جابوتنسكي » ، احد زعماء التحريفيين الفاشيين، قد اخذ وحيه الثقافي من المدرسة العنصريه الفرنسية ، ودرس رينان بشكل خاص .

اما اسلوبه السياسي فقد استعاره كاملا من النازيين . وليس من الضروري ان نتوقف طويلا عند تنديد كبار الصهاينة انفسهم بعنصريته . ولكن يكفينا ان نشير هنا الى ان حزبه قد حصل على ثلث اصوات الناخبين الصهاينه . كما رشح هو نفسه في احدى المرات لرئاسة المنظمة اليهودية .

التيار العنصري :

حتى ندرك تمام الادراك حدود التقارب بين الايديولوجية الصهيونية وتعاليم العنصريين يجب ان نعود الى الفكرة الرئيسية في كلتا الحركتين .

ان الفكرة الجوهرية التي بدونها لا يكون ثمة هدف من وراء الحركة الصهيونية واسرائيل هي : ان العالم يشتمل على امم مختلفة في نزاع دائم ، وقد بلغ هذا الصراع مستويات لا تطاق حين وصل الى اليهود الذين اصبحوا عناصر غير مرغوب فيها واهدافا سهلة ، بسبب عدم وجود وطن لهم . ان اضطهاد اليهود لا نهاية له ، والخلاص الوحيد منه يكمن في ايجاد وطن لهم . وغني عن القول ان هذا هو بالضبط ما كان يشير به العنصريون الاوروبيون.

ان رفض النظام الدولي والاخوة الانسانيه ، والحكومه العالميه ، والانصهار التدريجي للقوميات والمناطق ، كل هذه افكار مشتركة في كلتا الحركتين ، وهي توضح الموقف الساخر الذي تقفه اسرائيل من الامم المتحدة ، كما توضح موقف دول المحور حيال جامعه الامم .

ان تطابق الاراء بين الصهيونيه والعنصرية قد وصل الى اقصى مداه في الموضوع المتعلق باليهود ، وبالمسأله اليهوديه . فالعنصريون هم الذين قالوا بان العنصر اليهودي عنصر متميز غريب عن اوروبا بسبب أصله السامي . ان افكارا مثل فكرة نقاء الدم ، وخلود اليهود ، و« الخصوصيه » اليهودية قد شجع بها الاثم العنصري . وينطبق الامر نفسه كذلك على فكرة حتمية اضطهاد اليهود وقد صاغتها الموسوعة الثقافيه على النحو التالي : ان التحامل ضد اليهود هو نوع من المشاعر الغريزية والطبيعية ، التي تظهر في اي وقت يحتك فيه رجال من سلالات مختلفة بعضهم بالبعض الاخر (١١) . ومثل هذه الفكرة تجد ما يماثلها في كتابات بنسكر وموسس هيس ، وعمليا في كتابات المفكرين الصهاينة كافة .

ان للعنصريين وجهة نظر مزدوجه فيما يخص بنقاء السلاله . ان نيتشه مثلا جعلها في المرتبه الاولى على صعيد التطور ، واعتبر ان وجودها قد يساعد على تحسين العنصر الالماني ، في حين ان ترتشكه هو صاحب التعبير الشهير « ان اليهود هم سوء طالعنا » الذي اصبح شعار النازيين ، وحدث ان بعض العنصريين المنطقيين مع انفسهم جعلوا من الذكاء اليهودي والابداع والقدرة على البقاء ، ظواهر تابعة من نقاء الدم اليهودي ، في حين نظر آخرون كهتلر الى اليهود وكأنهم طفيليات ، غير قادرة على انتاج اي شيء خاص بها .

ويمكن استبيان ازدواجية اخرى في الادب الصهيوني . فقد راى موسس هيس انجمال الكامل في الوجوه اليهوديه ، ولن نوازمان ملء الثقة بالذكاء والابتكار اليهوديين ، على عكس ذلك فقد سعر هيرتزل بالاشمئزاز من بشاعة القسمات اليهودية وعبر عن شكواه بشان قابلية اليهود واستحقاقهم للعيش في ظل حكم ديمقراطي وجمهوري . فهم ابعد ما يكونون عن الخلق والابتكار ، ولم ير هيرتزل انهم قادرون على تطوير اي شيء خاص بهم . وهذه النقطة الاخيرة هاجمها بشراسة « احاد هاعام » في تقييمه لمؤسس الصهيونية السياسية .(١٢)

ان التشابه بين الصهيونية واعداء السامية من حيث الاراء والاهداف هو موضوع تطرق اليه كثيرون في تعليقات عديدة . والصهاينة انفسهم يقرون بذلك عندما لا ينساقون وراء الاسلوب الدعائي . ان موضوع الخلاف الوحيد بينهم وبين هتلر قد اثاره هذا الاخير في كتابه « كفاحي » ، معتبرا انهم اناس غير شرفاء، ينادون بالذهاب الى فلسطين ولا يقومون بذلك فعلا . ومن النقد الخطير الذي وجه الى هيرتزل كونه شديد الحرص على كسب رضا المعادين للسامية ، ومستفيدا من دعمهم.

وتصادف هذه الازدواجية نفسها في كتاب لامبروسو« الرجل المجرم » ، فاليهودي في هذا الكتاب هو عموما افضل من البقية، وهو اقل ميلا الى الجريمة ، ولكنه اكثر انتهاكا لبعض قواعد الشرف ، فهو مثلا يميل للخداع والتزوير والفجور .ـ وهذا ما يعتبره المؤلف متوارثا لدى اليهود ـ(١٣) .

النقاء وتفوق النقاء :

ان اضعف نقطة في النظرية العنصرية تكمن في الدعوى الخاطئة بان اليهود هم انقى سلاله. ان ملاحظة بسيطة بالعين المجرده ، كافية لابطال هذا الاعتقاد ، ولكن هذا الوهم ما زال قائما ومستمرا .

لقد قال الزعيم الصهيوني الامريكي لويس برانديز : « ان الزواج المختلط كان محدودا جدا . لذلك فان نسبه الدم الاجنبي لدى اليهود اليوم منخفضة جداً »(١٤) . وكان هنلر قد اورد كلاما مشابها لذلك حين قال : « اين نجد على شعب كالشعب اليهودي لم تطرأ عليه الا تغيرات قليله جدا في الذهنيه والشخصية على مدى الفي سنة . » (١٥)

وقد حافظ اليهود من بنسكر الى بن غوريون على مفهوم النقاء العنصري . وكرروا الاشارات المتعلقه بمعاداة السامية للانف اليهودي والشعر اليهودي .. الخ . والفرق الوحيد هو ان المعادين للسامية ، وكذلك هيرتزل نسبوا الى الجسم اليهودي ملاحظات اسهجانية في حين عبر عنه انصهاينه بمصطلحات جمالية . فقد زعم هيس في كتابه « روما والقدس » ان العنصر اليهودي بقي غيرمغشوش، فالانوف اليهودية لا يمكن ان يطرأ عليها اي تغيير ، كما ان الشعر اليهودي الاسود المموج لا يمكن ان يتغير بمجرد الرغبة في ذلك . واضاف قوله : ان تلك الملامح اليهودية تنم عن تعابير « روحيه جميلة » .

قد لا يكون الصهاينة واثقين تمام الثقة من قصة النقاء، ولكنهم مضطرون للقبول بها لاسباب سياسية . فبدون صحة الانحدار المباشر من الاسرائيليين القدامى تتقوض دعاواهم في فلسطين . وهذا بعد كل شيء ، ما اشار اليه هرتزل في كتابه « الدولة اليهودية »: ان اليهود بقوا شعبا واحدا وعرقا متميزا .. ان قوميتهم المتميزة لا يمكن ، ولن ، ويجب ان لا تتقوض . لذلك ، لا يوجد غير حل واحد فقط للمسالة اليهودية هو « الدولة اليهودية ».

ان موضوع النقاء العرقي ، والاصل المختلط ، اصبح مشكلة محرجة بالنسبة لاسرائيل ، كما كان الامر بالنسبة للرايخ الثالث في المانيا ، وكما هو الامر حاليا بالنسبة لجنوب افريقيا . ان سؤال « من هو اليهودي » ؟ حيوي جدا لحل مشاكل مختلفة تتراوح بين استيطان اليهود في اسرائيل ..وبين التعيينات الخاصة بفريق « ماكابي » لكرة السلة . مما ينتج عنه تمثيليات هزلية حقيقية .

ليس هناك سوء كبير في الاعتقاد بالنقاء العنصري ، ولكن المسالة تاخذ ابعادا خطرة عندما يتحول النقاء الى علامه تفوق كما كان الامر بالنسبة لعنصرية القرن التاسع عشر . وقد عبر سوكولو رئيس المنظمة الصهيونية عن وجهة النظر العنصرية بقوله : « تشتمل الطبيعة على اجناس مختلفة ، فالصقر لا يجهد نفسه من اجل السمك ، ولا الاسد من اجل الفطة . انظروا الى الاشجار ، والى سنابل القمح المنتصبة،هل كانت تتنمو بهذا الشكل الرائع ، وهل كانت لتكبر بمثل هذا الغنى وهذه النضارة ، لو تم خلطها بالقوة ، وامتصت الواحدة منها رحيق الاخرى » (١٦) .

وقد صاغ تريتشكه نفس هذه الافكار بكلمات مختلفة «ان الطبيعة تثار لنفسها من اي اختلاط في الانواع وذلك بجعل الانواع العالية تستسلم للانواع المتدنية . وحتى تزاوج الحصان والحمار ينتج عنه مخلوق يمتلك صفات الحيوان الاقل شانا ، وكذلك الامر بالنسبة الى البشر (١٧). اما بالنسبة الى موسس هيس الانثروبولوجي، فان النوع اليهودي ليس فقط موهوبا بذكاء وثقافة مسيطرين ، ولكنه ايضا متفوق في الزواج :« اليهود وحدهم لديهم الشعور الحقيقي بتغليب الحب الاموي على الحب الجنسي » « ان القلب اليهودي وحده ، يستطيع ان يفسح مجالا للحب الحميم تجاه العائلة » «اليهود

وحدهم قادرون على الارتقاء روحيا (١٨) » . ان مثل هذه الادعاءات الشوفينية المتطرفة تأخذ حجم ظاهرة طاغية في الادب الصهيوني. ان كل شيء في اعتقادهم من عمل اليهود منذ اكتشاف الكتابة حتى رحلات الفضاء .

والتأكيد على الذكاء اليهودي وعلى الاوصاف الموروثة ، انما يخدم غرضا سياسيا لانه يفضل تلك القابليات الخارقة قد تبعث فلسطين .

ان الخطوة التالية في الانتقال نحو التمييز العنصري ، تتمثل في الايمان بالتفوق القومي ، مما يستتبع الاعتقاد بدونية الاخرين، وبصورة خاصة العرب من وجهة النظر الصهيونية . والتهمة الرئيسيه الموجهة ضد العرب هي أنهم شعب رجعي مسؤول عن انحطاط فلسطين والشرق الاوسط برمته . والكتابات الاكثر معادة للعرب تنفي عنهم كل اسهاماتهم في الحضارة . فمجد الاندلس الرائع لم يكن من عمل العرب بل من عمل اليهود. واسبانيا نفسها لم يفتحها العرب وانما افتتحها البربر الذين هم من اصل يهودي (١٩) .

ويحلل و.ب. زف : الشخصية العربية بمصطلحات عنصرية نموذجية . « في الواقع ليس هناك عرب في اي مكان . وليس هناك حتى سلالة مختلطة متجانسة الى حد ما . ففي الجزيرة العربية انقطع العربي عن الوجود ، والذين اخذوا مكانه هم شعب خليط متنافر من مستوى متدن في ميزان التطور الانساني ، يتكلم اللسان العربي » وفي مكان اخر يضيف : « بما ان نقاء الدم في امة « محمد هو شرط نقاء النسل ، فاين هم احفاد قريش الان ؟ وحتى في قلب الصحراء العربية فان السلالة قد تدنست دنسا كبيرا خلال القرون الماضية بفعل تدفق الجواري القادمات من السودان، ومن بعض الاماكن الاخرى من افريقيا » . وعلى هذا فان الدم الافريقي مسؤول عن تردي السلالة العربية في ميزان التطور الانساني . وسوريا نموذج على ذلك حيث ان الشعب فيها اخلاط من حيث الدم والعقليات . ويمضي « زف » فيمتحن العيون وشكل الوجه.. الخ ليدلل على ان العرب الحاليين ليسوا عربا على الاطلاق »(٢٠) .

وقد عالج سوكولو ايضا في كتابه « تاريخ الصهيونية » مسألة التخلف الموروث لدى العرب ، والشرقيين بصورة عامة ، بينما تكهن بن غوريون بان العرب لن يتخلصوا ابدا من الاقطاع ومن التخلف . وهناك عدة وجهات نظر مختلفة تجاه العرب ، ولكن معظم الصهاينة يتفقون على ان الطريقة الوحيدة للتعامل مع العرب هي القوة ، وان العرب لا يستطيعون الانتقال الى القرن العشرين بمفردهم .

ان الاستشهادات السابقة قد تكون مختارة بشكل انتقائي، ويستطيع اساطين الصهيونية دحضها باستشهادات مختلفة .وبالفعل فان الادب الصهيوني يتضمن بعض الثناء على انجازات العرب التاريخية ، وقد يتفنون في مناسبات مختلفة بحب العرب في اطار عنصري . فان العرب واليهود ابناء عمومة . بيد ان الموقف الحقيقي تجاه العرب يمكن التوصل اليه في التحليل الاخير من خلال الاراء السائدة في المجتمع الاسرائيلي . فقد اظهرت الاستفتاءات التي اجريت في اسرائيل بان الاكثرية الساحقة تؤمن بدونية العرب . وهذا الاعتقاد ينعكس في كثير من الاقاويل الشعبية . فمن الشتائم الشائعة قولهم « عربي قذر » .كما ان الزواج من عربي لم يسمع به قط في اسرائيل ، لذلك يمكننا ان نستنتج بسهولة ، ان المديح الطنان الموجه للعرب في بعض المناسبات ، يعود الى اعتبارات دعائية ليس الا .

ان الخطوة التالية ، الخطوة الاخيرة ، هي خطوة قاسية ناجمة عن الاعتقاد بدونية الاخرين ، وبالتالي الموافقة على اتخاذ الحق او حتى الواجب للتقرير مكانهم ، والسيطرة عليهم ، وفي النهاية، ان اقتضت الضرورة ، مسحهم من الوجود .

ان دستور هتلر الجديد ، قد بنى ايديولوجية على اساس نظرية تريتشكه التي تعتقد بان الالمان ، لكونهم عرقا متفوقا ، يحملون رسالة توجيه الناس الاخرين والسيطرة على مصائرهم . وقد اضاف في تطبيق له في مسألة الالزاس :« نحن الالمان الذين نعرف كلا من المانيا وفرنسا نعرف ما هو الافضل لهم احسن منهم » (٢١) . وهذا الزعم نفسه قالته المانيا بعد ذلك بصدد بولندا . وهذا هو شعار العنصريين في كل مكان وفي كل زمان ، كلما اقدموا على اضطهاد شعوب اخرى سواء كانت في جنوب افريقيا او في روديسيا او في الامبراطورية الاستعمارية السابقة .

وهذه كانت ايضا طريقة معالجة الصهيونية لمشكلة فلسطين . فقد اعترضوا ـ طيلة الانتداب البريطاني ـ على كل المحاولات المبذولة لاعطاء فلسطين شكلا من اشكال السلطة المنتخبة . وعلى الرغم من ذلك ، فان سبب اعتراضهم الرئيسي كان بسبب تخوفهم من انتخاب اكثرية عربية ، غير انهم لجأوا الى حجة ان العرب غير قادرين على تسيير أمورهم ، ليس في فلسطين وحدها ، ولكن ايضا في الشرق الاوسط برمته .

وظل الادعاء القائل بان العرب لا يعرفون ما هو اصلح لهم جزءا من الدعاية الاسرائيلية . وقد استخلص كثير من المسؤولين الاسرائيليين المعروفين بصراحتهم النتائج الخطيرة والمأساوية المترتبة على هذه النظرية . فقالوا ان العرب ليسوا في حقيقة الامر سوى قدامى الكنعانيين الذين استبقاهم الاسرائيليون في غفلة من الزمن. ويرى الحاخام العسكري ان ما كان ينطبق على هؤلاء في السابق يجب ان يطبق في وقتنا الراهن . ان العيش المشترك مع العرب غير ممكن على مدى طويل فيجب اما طردهم واما ان يكفوا عن التوجه بعبادتهم نحو مكة .

وادعى الحاخام الاسرائيلي « شاوول » وهو بصدد الدفاع عن الجنود الذين قاموا بمذبحة قبية ، ان الجنود انما كانوا يقتلون اطفالا وثنيين فقط ، دعا الى موتهم النبي موسى نفسه حينما امر بقتل الاطفال المديين بحد السيف .

وعلى هذا فالمذبحة الاسرائيلية ليست اكثر من انتهاك ضئيل . ومن جهة اخرى فقد وصف الحاخام عبيدة هدايا غزو اسرائيل للاراضي العربية عام ١٩٦٧ على ـ انه تحرير للارض المقدسة من سطوة الشيطان (٢٢) .

نظرة الى الوراء :

ان الايمان بنقاء السلالة يقود الى الايمان بالنموذج الاصلي على اعتبار انه بالتاكيد انقى النماذج . ويؤدي هذا الى نوع من الحنين الى ذلك اليوم الذي ولدت فيه الامة لاول مرة والى الايام الاولى لنشوئها . ان اهتمام الموسيقار الالماني فاغنر بالاساطير الالمانية « مثال شديد الدلالة بهذا الصدد » . وكذلك الاهتمام النازي الشامل ببعث الثقافة ، والتقاليد ، والفولكلور ، والفنون والاعمال اليدوية القديمة . ان العنصريين يكرهون هجوم الصناعة المعاصرة وظهور الطبقة العاملة . ولم يستطع نيتشه رغم تطلعه الى المستقبل والى انسانه المتفوق ، الا ان يعبر في كتابه « هكذا تكلم زرادشت» عن كرهه للصناعة ورغبته في الهروب منها .

ان التطلع الى النقاء ادى ايضا الى تمجيد الطبيعة ، التي وصفها بكثر « بالارستقراطية » . ومن التقاليد العنصرية الاخرى الاشمئزاز من الماكياج ومساحيق التجميل ، وحب القيم الريفية والفروسية ، والاهتمام بكل ما هو قديم .

وكتب تريتشكه « ان كرامة الدولة تكمن في تواصل الامة بفضل الاجيال المتعاقبة » واضاف قوله « ان الوطنية الحقة مبنية على

اساس الوعي .. بجذور متأصلة في عملية وراثية »(٢٣) .

ومن هنا نجم الاهتمام البالغ بالزراعة وحب الغابات . فالعنصرية قسمت البشر الى فئتين : سكان الغابات الذين يبنون الحضارات ، وسكان الصحاري الذين يودون بتلك الحضارات . وهكذا نشأ الاتهام المعادي للسامية الذي يعتبر ان اليهود ينتمون للفئة الثانية ، على اعتبار انهم دون الامم الزراعية الاخرى ، لا يمتلكون آلهة انثوية او آلهة ـ ام » ، رمزا للخصب والتواصل. وقد عكست الصهيونية ذلك التقليد بكل مظاهره . فقد نادى بينسكر وبيبر ، وسوكولو ، « بالعودة الى الطبيعة »، واصبحت العودة الى الارض « شعارا اساسيا من شعارات الحركة الصهيونية .

لقد كانت الزراعة هي الفرع الاساسي من فروع العمل التي توجه اليها اليهود قبل اي شيء آخر . ذلك ان زراعة الارض كان ينظر اليها منذ البداية على اساس انها قاعدة اساسية من « قواعد الوطن القومي » (٢٤) .

طبعا يمكن القول ان هذا لا علاقة له بالعنصرية ، بل انه واقعة من وقائع الحياة في بلد كفلسطين . ولكن فلسطين لم تكن في الحقيقة مركزا زراعيا معتبرا .

فالحماس تجاه الزراعة والغابات كان غير طبيعي حقا ويكتسب ابعادا شعرية ، كما كان الحال مع مارتن بيبر الذي اكد ان العالم لا يمكن ان يصلح الا باسرائيل ، وان لا يمكن ان تصلح الا بعودتها الى الارض (٢٥) .

وكما اشرنا الى ذلك آنفا ، فقد كانت العنصرية تعتبر الهجرة الى مستوطنات زراعية كحل للبطالة ،حيث ان المهاجرين يأخذون اماكن « السلالات الدنيا » التي لم تعد قادرة على الاستمرار في الصراع من اجل التطور ، كما اوضح ذلك نوردو . ومن الامور الغريبة في نوعها ان الوكالة اليهودية والحكومة الاسرائيلية كانتا على الدوام بين ايدي فئة من السياسيين ـ المزارعين .

وحتى يومنا هذا ، فان الحياة في المستوطنات الزراعية تعتبر الحياة المثالية بالنسبة للصهيوني الحقيقي . ولا احد يجرؤ ان يتساءل عن سبب تبديد الاموال في الكيبوتزات غير الاقتصادية . ان عودة بن غوريون بعد تقاعده الى صحراء النقب الجرداء ،ليرعى الماعز ، ويزرع الخضار ، ويتأمل في التوراة هو نموذج لكل ما هو تقليدي وبدائي وقومي وزراعي في المدرسة العنصرية .

وقد ادعى « أحاد حاعام » المأخوذ بفكرة القوة المعنوية لليهود ، ان هذه القوة موجودة في أصولهم حتى قبل التوراة بزمان بعيد . ولقد كانت جزءا من قوتهم « الفطرية » . وقد افرد وايزمان مكانا فسيحا في مذكراته الضبابية ليروي كيف انه اهتز لمنظر الحياة الطبيعية للحيوانات في افريقيا وهي تعيش حتى بدون القلق من مشكلة العرب. واضاف قوله : « كم هو امر رائع حقا ، ان تكون حيوانا في ملاعب جنوب افريقيا » (٢٦).

ان نظرية تريتشكه المتعلقة بجذور العملية الوراثية قد جعلت من علم الآثار تمضية للوقت وهواية لمعظم الاسرائيليين وعلى راسهم « موشي ديان » فكل واحد هناك ينقب من اجل العثور على بعض العظام او الاواني المكسورة . كما ان احياء اللغة العبرية والاسماء القديمة للناس والاماكن يبقى ضمن اطار هذه الدائرة . ان هذه الصورة تفسر التعايش العجيب بين الطقوس القديمة ، والممارسات الدينية ، والسلطة المطلقة لرجال الدين جنبا الى جنب مع التنظيم والتقنية الاكثر حداثة وعصرية .

اللاعقلانية :

ان التقليدية وسط هذا العصر العلمي لا يمكن الا ان تقود الى الرومانتيكية والمثالية واللاعقلانية . فالعنصرية مشحونة بالمتناقضات والطريقة الوحيدة لتجاوزها تكمن في اغرافها بالبلاغة الادبية. والشعار الصهيوني القائل : « الشعب الذي بدون وطن الى الوطن الذي بدون شعب » ، خير مثال على ذلك . ان رفض المواجهة الواقعية لحقيقة المستقبل مع العرب هو دليل آخر وان الطريقة التي تعالج بها الصهيونية مثل هذه الحقائق المرة تؤدي حتما الى اتهامها بالازدواجية والاحتيال والتهرب . وفي الواقع فان الهوس بفلسطين لدى الصهاينة لا يمكن تفسيره على اساس منطقي كما اشار الى ذلك « ارثر كسلر » . ان اللاعقلانية من مظاهر العنصرية . فالعلم والمعرفة والعقل كلها امور نسبية ،فهي مرتبطة بعرقك وتتوقف عند حدودك القومية .

اما القوانين الاخلاقية فما هي الا مخترعات استنبطتها جماعة لمصلحتها اثناء نضالها من اجل السلطة .

يقول نيتشه « ان هناك مستويين للاخلاق : مستوى للجماهير مبني على اساس الاوهام والدين ، والمستوى الاخر للزعماء ،وهو مبني على اساس الوعي والقوة . ان العوامل الاقتصادية لا اثر لها على الناس الذين تحركهم العواطف والمثاليات والميول والشعارات والدعايات.والى ذلك يجب ان نضيف التشاؤم والمساواة والديمقراطية والاخوة الانسانية فما هي الا مجرد اوهام والقانون الدولي هراء ، لانه « يتعارض مع طبيعة الدولة » . لقد عقدت المعاهدات للتحالف على الظروف فقط . « فالدولة لا يمكنها ان تخضع مشيئتها فيما يخص المستقبل لمشيئة دولة اخرى » (٢٧) . وبالفعل فان القانون الدولي لا يعطي افضل ما عنده الا عندما يتعلق الامر بالحرب « وبدون حرب لن تكون هناك دولة على الاطلاق » . انها المهمة الرئيسية الثانية للدولة (٢٨) . ان واجب الدولة الصغيرة هو ان تتوسع وتصبح اكبر . « فاذا لم تستطع الدولة ان تكوّن جسما صلبا ومتجانسا ، فمن واجبها على الاقل ان تعدّل حدودها بشكل مناسب (٢٩) » .

هيرتزل واللاعقلانية :

هنالك دلائل كثيرة تؤكد وجود شذوذ عقلي لدى هيرتزل ، وهو ملمح نجده لدى الزعماء العنصريين . على اية حال فان يومياته تبين التأثير الهائل الذي تركته عليه العنصرية الالمانية . لقد تصور الدولة اليهودية على شكل ملكية يحكمها دكتاتور مستنير ، يعين نصف النواب . اما الشعب السياسي فيعاقب عليه بالموت لان الديمقراطية السياسية هراء . وتلك نماذج من بعض آرائه التي اوردها في الدولة اليهودية .« ان الاخوة الانسانية لا تمثل حتى حلما جميلا » .

« فالتناقض ضروري لبلورة اقصى ما لدى الانسان من طاقات »

« كل ما هو عاجز عن البقاء يمكن ان يدمر ، وسوف يدمر ، ويجب ان يدمر ».

« القوة تتقدم على الحق »

« كل ما يخص العلاقات بين الامم هو مسالة قوة » .

« انني مؤيد شديد للمؤسسات الملكية لانها تسمح بانتهاج سياسة متماسكة وتمثل مصالح عائلة تاريخية شهيرة ولدت وتعلمت لحكم » . ـ

« انني ارى انه من الجنون حل المشاكل بواسطة الاستفتاء الجماهيري » .

وهذا كله يظهر الاثر الخاص الذي تركته عليه تعاليم نيتشه.

وقد استعار من عبادة نيتشه للارادة ، شعاره القائل :« اذا اردتـه فليس ذلـك باسطـورة » .

وقد عاش هيرتزل منذ مطلع شبابه حياة طالب ألماني عنصري . فقـد انضم الى جمعية « البيا » المغرقـة في رجعيتهـا وحمل شعاراتها واعجب بميولهـا العسكريـة واشترك في مبارزاتهـا :« ان سـت مبارزات ستكـون ذات شأن كبيـر في تحسين اوضاع اليهود ». انه من الضروري ان تتمتع الدولة اليهوديـه بقوة عسكريـة كبيرة ،وان تحقق انتصارات عسكريـة . وفي احـد احلامه العجيبة تصور نفسه محاطـا بالبنادق والجنود الذيـن وصف بزاتهم بدقة (٣٠) .

وقد نصح في مجال آخـر الدولة اليهوديـة برشوة جيرانهـا بالاعانات ، الى ان يحيـن الوقت الذي يرى فيه القائد العسكري ان « بامكـان القوة اليهوديـة آن تقف ندا في وجه هـذه الجمهوريات مجتمعـة » .

وفي كتابه عن سيرة حياة هيرتزل ، لفت ديزموند ستيـوارت الانظار الى تكرار استشهاد هيرتزل بالعنصر واشار الى ان استعمالـه المصطلحات العنصريـة لـم يكـن مدهشا بالنسبة لشخص عاش زمانه وتشرب ثقافته . ولكـن بعد ذلك ، حينمـا التقى بيهودي غير وسيم، تغلب عليه الملامح الافريقية ، استبدل العنصر بالقومية (٣١) .

سلطـة الدولـة :

ان فيلسوف الفاشية جانتايل كان يستعمل تعبيرا آخـر للتدليل على سلطـة الدولة . فالتعاونيـة بالنسبة اليه تعني « ان الانسان ليس فردا منفصـلا ولكنه حيوان تواق لتشكيل جماعـة وكل هـذه الجماعات يجب ان تكـون خاضعـة للمجموعـة الاعلى . الا وهـي الدولة » . وهذا هو ملمح آخر ، لا مهرب منه ، من ملامح العنصرية، ولكـن نسبته الى اسرائيل لا تبدو امرا سهـلا من النظرة الاولى على الاقل . ان معظم الدول العنصرية كانت دكتاتورية ولكـن لا يمكـن ، اعتبار اسرائيل واحدة من تلـك الدول ، بقدر مـا يتعلق الامـر بالمواطنين اليهود . وهذا هـو سلاح الصهيونية ضـد تهمة العنصرية. ان مطامـح هيرتـزل الاوتوقراطية قد نحيت جانبا . انالديمقراطية الاسرائيلية على الطريقـة الغربيـة هي العنصر الوحيـد الشاذ فيبنية عنصريـة متكاملـة . ولكـن هذا العنصر من الممكـن ايجاد تفسير له.

فقـد اسست اسرائيل على صورة الحركة الصهيونية التي تمتد في اربعـة انحاء العالم وتضم اناسـا من اجناس ولغات مختلفة . فالحركـة كانت تحتاج الى المال من اليهـود الامريكـان ، والـى المهاجريـن من روسيا ، والى الحمايـة الاستعمارية من اوربا والى التعاون من جانب اليهود العثمانيين .

وعلى الرغم من الهالة التي كانت تحيط به ، فقد انحدر هيرتزل من بيئة يهودية مندمجة في مجتمعهـا ، وكـان يعتبر دخيـلا تحـوم الشكـوك حول اصله . لذلك كـان من الضروري منذ البدايـة ايجاد قيادة جماعيـة وهيئة تمثيلية . ومنذ عام ١٨٩٧ تحول المؤتمر الصهيوني الى برلمان صهيوني . وتحت الانتداب البريطاني ، اصبح وجود الوكالة اليهوديـة شرطـا لا بد منه لخلق الوطـن القومي . وبعد عام ١٩٤٨ احتاجت اسرائيل الى مهاجرين من الغرب ، وبدا انه من غير السهل اقنـاع هؤلاء بالهجرة حتى مع وجـود حكم ديمقراطي في تل ابيب. وقد يقبل الناس بالدكتاتورية ،حتى انهم قد يدعمونهـا اذا كانوا يعيشـون في ظلها ، ولكـن لا احـد يرغب في الذهاب ووضع نفسه في قبضتهـا . فعمر اسرائيل اليـوم اقل من ثلاثين سنـة ، وهـو عمر لا معنى له اذا اخذنـا بعين الاعتبار طول عمر الدول . فماذا سيجلب المستقبل لمؤسساتها ؟ وكيف ستستمر فـي العيش اذا ما تغـيرت الظـروف ؟

وعلى الرغم من الحياة الحرة التي يحياها الاسرائيليون ، فـان بذور الديكتاتورية باديـة بشكل واضح في تسلط الدولة . فمنـذ البدايـة كانت المهمات الصعبة للحركـة الصهيونية تقتضي باخضاع الفرد للقضيـة المشتركـة فمدرسـة « الصهيونية القاسية » نادت حتى باضطهاد اليهـود لدفعهم للهجرة الى اسرائيل .وقد تعرض يهود العراق الى هذا الاسلوب في عام ١٩٥١ ، حيـن تم القاء القبض على عملاء صهاينة بجريمة القاء القنابل على يهـود بـغداد لتحريضهم على الهجرة (٣٢) . أما اتهامـات اليهود المعادين للصهيونية ، القائلـة بمسؤوليـة الصهيونية عن التضحية بحياة عدد كبيـر من اليهـود في اوروبا النازية ، وفي اماكـن اخرى لمصلحـة الوطن القومـي اليهودي ، فانهـا تثير سخط الاسرائيليين .

ولقد اصبحت التضحيـة اعظم الفضائل ، وبيـن الحين والاخر تقدم لنـا الحكومة الاسرائيلية دلائل علـى سياسـة حافة الهاوية التي تتبعهـا ، وعلى المخاطـر والتضحيـات التي تطلبهـا فـي خدمـة تكتيكـات واستراتيجية الدولة . وما حادثتا ميونيخ ومطار عينتيبة الا مثالان حديثان على ذلك .

وقد قدمت لنـا اسرائيل مثـالا من نوع آخـر في اذار من عام ١٩٧٦ . ففي ذلـك التاريخ اعترض الحاخامون والجراحون على مطالب النساء بتسهيل الاجهاض ، واعتبروا ان هذه المطالب ستؤدي الـى انتحار قومي لانهـا ستسبب انخفاض نسبة الولادات في اسرائيـل . وكانت قد صدرت عن النازيين آراء مشابهـة تتعلق بزيادة نسبـة الولادات فيمـا يخص العرق الاري .

الجذور التاريخيـة :

ان اغلب الحركات القوميـة التي وقعت تحت تاثير العنصرية في القرن التاسع عشر لـم تمارس سياسات تمييزية فعالة . وهي علىكل حال لـم تواظب في هذا الخط حتى ايامنا . ولكن الصهيونية ظلـت حالة فريدة لاسباب تمتد الى ابعـد من القـرن التاسـع عشر ، وتضرب جذورهـا عميقـا في التاريخ اليهودي . وهذا مـا كـان يجول في خاطـر « احاد هاعام » حيـن قال ان اليهـود لـم يكونوا بحاجة الى نيتشه لان اليهوديـة تشتمل على النيتشوية وعلـى تصورهـا للتفـوق القومـي .

ان هذا موضوع حساس وكثير من الناس يتحاشونه خشية ان يتهموا بالعداء للسامية . وهذا موضوع معرض ايضا لتشويشكبير. وبالفعل ، فاليهوديـة كالديانات الاخرى ، فيهـا مستويات واتجاهات متعددة . ومن البدايـة ظهـر فيهـا اتجاهان : الاول عالمي ،والثاني قبلي . ومع الاسف ، فـان الضغوط على اليهـود قـد ساعدتدائما علـى ترجيح كفة الاتجاه القبلي . ذلك ان سياسة « ارميـا »الداعية الى الانصهار سرعـان مـا انهارت امـام عنصريـة « عزرا » الجامـدة وهو قد يكون على الارجح اول عنصري حقيقـي في التاريخ . فقـد حرم الزواج من غير اليهود . امـا الذيـن تزوجوا من غير اليهـود فيجب عليهم ان يطلقوا . ففير اليهود نجسون ، وقد فرض الطهـور كدلالة على التمييز . فحتى على الصعيد التجاري ، يجب على اليهود ان يفضلوا التعامل مع اليهـود وان يمارسوا التمييز تجاه الاغراب. فالاختلاط بولد انواعـا رديئة ، ويجب عدم مزج الانواع المختلفة من الحبوب والماشية . كمـا يجب عـدم خلـط القطـن بالصوف لان الانسجـة تعالج كلهـا بنفس الطريقـة دون الاخذ بعين الاعتبـار نوعيتهـا .

وتحت الحكم العربي السمح في اسبانيا تبنى موسى بن ميمـون قضيـة الاخوة الانسانية مرة اخرى . وقد نصح بن ميمون ، كمـافعل « ارميـا » من قبله ، اليهودي بان يكـون احد ابناء البلد الذييعيش

فيه . فليس هناك من اذى في العيش تحت سلطة حكام مسلمين او مسيحيين يعبدون نفس الآله الذي يعبده اليهود . « ان المؤمنين الى ايسة امة آنتموا لهم حصة فيالعالم الذي سيأتي ما داموا يعترفون بالله بقدر ما وهبهم . ولكن اليهود لم يقروا بذلك ، ونددوا بابن ميمون عند الحكام المسيحيين واتهموه بالهرطقة واحرقوا كتاباته . وعلى العكس من ذلك فقد قبل شعر جهودا هيلفي على آنه يمثل الوجدان اليهودي الحقيقي . وقد استشهد الدعائيون الصهاينة بقصائده التي يحن فيها الى فلسطين مرات ومرات . وما يعنينا بشكل خاص هو كتابه « الخزارى » الذي اعتبره بعض المتحدثين بلسان اسرائيل كمصدر الميول العنصرية في الحركة الصهيونية . فالكتاب يتحدث عن اليهود « كصفوة » الجنس البشري وعن عرقهم كالعرق المختار بين الامم . فالافضلية معطاة لهم لا بسبب تقواهم او طاعتهم ولكن لاسباب فيزيولوجية وعلى أساس اختيار الهي :

« ان الرجل العاصي تنزل عليه النعمة الالهية اذا اختلط بامرأة طاهرة النساء . فيستفيد ابناؤه وحفاده من نقاء نسبهم»(٣٣).

فليس مدعاة للعجب آن تظهر السلطات الدينية في اسرائيل نفسها بمظهر العنصريين الاكثر تحجرا ، مما يسبب حرجا لرجال السياسة والصحافة . ولكن ما آن يتعلق الامر بالزواج المختلط، وهو موضوع حساس يمكن على اساسه التمييز بين من هو انسانيومن هو عنصري ، حتى تتساوى مواقف الحاخامين بمواقف رجالالسياسة الصهاينة . ومن المفيد ان نشير بهذا الصدد الى « احاد حاعام »: فرغم ميوله الروحانية اعتبر ان اخته قد ماتت في نظره ، لمجرد انها تزوجت من شخص غير يهودي .

الخلاصة :

ان من اخطار سوء الفهم ، الاعتقاد بان شعبا من الشعوب لمجرد انه كان ضحية من ضحايا عقيدة ما فانه يكتسب مناعة ازاء انتقالها اليه . فالعكس هو الصحيح ، ذلك ان الشعوب تليس بزات فاتحيها ومعذبيها .

فمن السذاجة بمكان الاعتقاد انه بسبب ما فعله العداء للسامية باليهود ، فان الصهيونية ستكون محصنة ضد العنصرية . وقد لفت موريس د . كوهين انظار اخوانه في الدين الى هذه النقطة منذ عام ١٩١٩ حين صرح :« انهذا الميل المستمر لتاكيد الوعي والانتماء الى اجناس مميزة والذي نصاعد بسبب ما اصاب اليهود من اضطهاد منظم في السنوات الاخيرة قد دفع اليهود المتحررين حديثا الى اعتناق الفلسفة العنصرية للتاريخ وهي فلسفة جد شعبية متمثلة في الجانب الالماني بكتاب « اسس القرن التاسععشر» لتشامبرلين ، وفي الجانب الروسي باصحاب الميول السلافية ك « كاتكوف » . والصهاينة يدينون اساسا بالايديولوجية العنصرية لدى هؤلاء المنظرين المعادين للسامية ، ولكنهم يخرجون باستنتاجات مختلفة فيصبح اليهودي ، لا الالماني ، هو العنصر النقي او المتفوق » (٣٤) .

وعلى كل حال فان للعنصرية الصهيونية جذورا اعمق بكثير مما للعداء الاوروبي للسامية ومجال تحركها اوسع بكثير ايضا بسبب برنامجها الاستعماري . فالسكان العرب يشكلون بالنسبة لها هدفا عنصريا ممتازا ، بسبب اختلاف لون بشرتهم ودينهم وثقافتهم وممارساتهم العنيدة . ان كثيرا من الاجراءات والمواقف التمييزية التي اتخذتها الوكالة اليهودية والحكومة الاسرائيلية كانت تتجاوز حدود متطلبات الامن ، وحاجات وضرورات الظروف .

ان الحجم الذي اتخذته مثل هذه السياسة التمييزية ، لم يكن من السهل تصوره دون اساس ايديولوجي .

فمعاملة اسرائيل لغير اليهود وعزمها بشكل خاص على مقاومةكل انصهار لا يمكن ان يفهما بصورة كاملة الا بمفهوم عنصري مما يفسر بدوره عنف الاحتجاجات الصهيونيه ضد اتهامها بالعنصرية .

الحواشي :

١ ـ بولياكوف ».« الاسطورية الآرية »،لندن ، ١٩٧١ ص٢٨١.
٢ ـ ذكرت في نفس المصدرالسابق ص ٢٨٤ .
٣ ـ نيتشه ،ف. « ارادة القوة »،لندن ،١٩٦٨ ، ص ٩٣ .
٤ ـ بولياكوف، ص ٣٠٠ .
٥ ـ بحث وارد في كتاب « اعادة النظر في الصهيونية » ، م. سلزر ، لندن ١٩٧٠ .
٦ ـ بنتويش ،ن .« احاد حاعام وفلسفته » جير . ١٩٢٩ ص ١١٣ .
٧ ـ يعتبر لامبروسو على سبيل المثال ان سبب كثرة الجرائمفي كالابريا وصقلية وسردينيا يعود اساسا الى وجود « عناصر افريقية وشرقية » .
(لامبروسو ،س ،« المجرم » ، لندن ، ص ١٤٠ .
٨ ـ نوردو ، م « الانحلال » ، لندن ،١٨٩٦ ، ص ١٨ .
٩ ـ نفس المصدر السابق ، ص ٥٣٦ .
١٠ ـ نفس المصدر السابق ، ص ٥٤١ .
١١ ـ ذكرت عند « بولياكوف »،ص ٢٧٤ .
١٢ ـ باين ، آ. « تيودور هيرتزل »لندن ،١٩٥٦ ص ٤٠٦ .
١٣ ـ المجرم ، تلخيص جلامبروسو ، نيويورك ، ١٩١١ ص.١٤٠.
١٤ ـ خطاب القي في حزيران ١٩١٥ ،
« Brandeis on zionism »
واشنطن ١٩٤٢ .
١٥ ـ « كفاحي » جامس مواري ،لندن ١٩٣٩ ،ص ٢٥١ .
١٦ ـ سوكولو ،ن . «تاريخ الصهيونية » ،لندن ،المجلد الثاني ص ٦ .
١٧ ـ تريتشكه ،هـ « السياسة » ،لندن ١٩١٦ ، ص ٢٧٦ .
١٨ ـ « روما والقدس » .
١٩ ـ زيف ، و.ب. « اغتصاب فلسطين »،لندن ١٩٤٠ .
٢٠ ـ نفس المصدر السابق .
٢١ ـ ماك غفرن ، و.ب. « من لوثر الى هتلر ،١٩٤٦،ص٣٦٧.
٢٢ ـ « اسرائيل ، واساءة استخدام الدين اليهودي » بقلم ب. شافي ، ميد ايست انترناشيونال .
٢٣ ـ ماك غفرن .
٢٤ ـ كوهين ،ي . « الحركة الصهيونية »،لندن١٩٤٩،ص١٥٩.
٢٥ ـ بوبر ، م« اسرائيل وفلسطين »،لندن ،١٩٥٠ .
٢٦ ـ وايزمان ،س .« التجربة والخطأ » ،لندن ،١٥٠ ص.٤٣ .
٢٧ ـ تريتشكه ، « السياسة » ص . ص ١، ١٦ . ٥
٢٨ ـ نفس المصدرالسابق، ص ،ص ٢١،١٢٤ .
٢٩ ـ تريتشكة ،ذكره ماك غفرن .
٣٠ ـ « اليوميات الكاملة »، ص ٤٠ .
٣١ ـ ستيوارت،«تيودورهيرتزل» لندن،١٩٧٤،ص.ص١٧٨،١٧٩.
٣٢ ـ موجز المحاضر ،فهمي ،آ ،« سموم الافعى » بغداد ١٩٥٢ .
٣٣ ـ كتاب« كزارى »اوكسفورد. MCMXLVTT ص.ص٢٢ ،٤٧.
٣٤ ـ كوهين ، م.د « الصهيونية ، القبلية او الليبرالية » ، فيج .ف. سميث ، « الصهيونية ، الحلم والواقع » ، لندن ، ١٩٧٤ ص ٥٠ .